النار والسيف في السودان

الخاتمة

ختم سلاتين باشا كتابهُ بفصل اثبت فيهِ خلاصة ما ذكرهُ في الفصول السابقة من حيث قيام المهدويَّة ونجاحها وانحطاطها وانباً بما نظنهُ ممَّا ستأول اليهِ حال البلاد. قال ما خلاصتهُ

مضى عليَّ اكثر من ست عشرة سنة في افريقية قضيت اثنتي عشرة سنة منها في الاسر وقد تغيرت افريقية في تلك السنين تغيرًا عظيمًا فالاقطار الَّتي خاطر فيها مشاهير السياح بنفوسهم صارت الآن محطًّا لرحال الاوربيين ودارًا لتجارتهم فدخلها الايطاليون والانكليز والالمانيون من الشرق والفرنسويون والبلجيون والانكليز من الجنوب والغرب ويكاد يصافح بعضهم بعضًا في قلب افريقية. والقبائل المتوحشة الَّتي لم تكن تفرق عن الضواري في معيشتها علمت الآن ان في الارض امَمًا اخرى ارقى منها واقوى ولديها من وسائل الهجوم والدفاع ما تتغلب بهِ على غيرها ولو في بلاد غير بلادها. والممالك الشماليَّة المستقلة كوداي وبرنو وفلاَّتا ستضطر ان توالي الشعوب الاوربيَّة والاَّ قُضي عليها

والسودان المصري في قلب افريقية يسوسهُ الخليفة عبد الله التعايشي بالظلم والاستبداد ويمنع عنهُ الاوربيين فلا يدخلهُ واحد منهم الاَّ ليموت او ليؤسر ويسجن مدى الحياة. وهذه الحال حادثة فيهِ كما لا يخفى فانهُ منذ فُتح في عهد محمد علي باشا بقي سبعين عامًا تحت سلطة الحكومة المصريَّة ودخل المصريون والاوربيون مدنهُ واستوطنوها وكان السيَّاح يجوبونهُ من طرف إلى طرف آمنين ومُدَّت فيهِ اسلاك التلغراف وانتظم سير البريد وبُنيت الجوامع والكنائس والمدارس وساد الأَمن على ارجائهِ لا حبًّا بالحكومة ولا اخلادًا إلى السكينة بل خوفًا من العقاب الصارم وخراب الديار وتشتيت الشمل لان رجال الحكومة ساسوا البلاد حينئذٍ بقضيب من حديد فلما ظهر محمد احمد وادَّعى انهُ المهدي المنتظر وانهُ مرسل لتخليص الناس من جور الحكومة وتطهير الارض من مفاسد الحكام لم يتعذَّر عليهِ ان يجد لصوتهِ سامعًا ولدعوتهِ ملبيًا فكان من امرهِ ما كان على ما بسطناهُ في الفصول السابقة. وبنى السودانيون على خرائب العمران الذي قوَّضوهُ قبل ان يتأصل في بلادهم بناء من الجور والفساد لا مثيل لهُ في بلاد أُخرى حتى عادوا بالسودان إلى حال أَقبح من الحالة التي كان فيها قبل دخوله في حوزة الحكومة المصرية

لكنَّ الغيرة الدينيَّة ٱلَّتي كانت اقوى انصار المهدي حين قيامهِ زالت رويدًا رويدًا وقام مقامها التعصُّب الاعمى والجور الفاحش والجشع الشديد في ايام خليفتهِ حتى انهُ بفعالهِ وفعال انصارهِ افنت الحروب والمجاعات والاوبئة ثلاثة ارباع السكان في اقل من عشر سنوات ومَن بقي منهم حيًّا لا تفرق حالهُ عن حال العبيد الارقَّاء

فالسهول الغربيَّة ٱلَّتي كانت في عهد الحكومة المصريَّة مشحونة بقبائل العرب امست الآن مأوى للوحوش . والبلاد الواقعة على النيل وفروعهِ هجرها سكانها او امسوا عبيدًا لقبائل العرب الذين جاء بهم الخليفة وانزلهم فيها . ويقال جملة ان سكان البلاد الاصليين قد ضعف شأنهم جدًّا حتى يتعذَّر عليهم ان يخلعوا نير الخليفة وقومهِ الَّا اذا جاءهم العون من الخارج وثبت لهم ان القوة المقبلة لمساعدتهم تستطيع ان ترفع عنهم ظلم الخليفة وانصارهِ وتقيم في البلاد حكومة عادلة فانهم اذا رأوا ذلك واعتقدوهُ انضموا إلى هذه القوَّة وساعدوها بما بقي فيهم من رمق . والَّا فسلطة الخليفة تدوم مادام حيًّا واذا مات فقد يزيد الاضطراب ولا تنقل الخلافة إلى بنيهِ كما يطلب لكن حال البلاد لا تحسن بموتهِ ولذلك فلا منجاة لها الَّا اذا قيَّض الله لها قوَّة خارجيَّة تقبل اليها لتنزع الظلم والجور منها

وقد تغيرت احوال بلاد السودان من جهة اخرى وذلك انها لما كانت في ايام اسمعيل باشا الخديوي الاسبق محطًّا لرحال اهل الحضارة كانت البلدان ٱلَّتي حولها بعيدة عن العمران موصدة الابواب دونهُ اما الآن فبلاد السودان اقفلت ابوابها دون العمران والبلاد ٱلَّتي حولها فتحت ابوابها لهُ . فمصر عادت تستردُّ بلادها في جهات سواكن وطوكر (ووادي حلفا) والايطاليون اخذوا كسلا واهالي فازغلي والنيل الازرق خلعوا طاعة الخليفة وتقدَّم الانكليز من جهة الجنوب وسيمدون سكة الحديد الى تلك الاصقاع وانبل روَّاد الفرنسويين من جهة الشمال الغربي وكادت قبائل الغرب والشمال الغربي تشقُّ عصا الطاعة ولا بدَّ من ان يعينها الاوربيون على ذلك تقريبًا

وعليهِ فاعداء الخليفة يتهددونهُ من كل ناحية ولابدَّ من ان يتغلبوا عليهِ وان تمَّت لهم الغلبة فما يكون شأن مصر حينئذٍ ان لم تسترجع السودان الذي كان لها . وماذا يكون شأن الدول الاوربيَّة ٱلَّتي ستبلغ النيل انتظر اليهِ كنهر خاصٍّ بمصر او تغضي عن مصر ومكانها وتحول ماء النيل لارواء البلدان ٱلَّتي تفتحها بدماء رجالها وتترك بلاد مصر تموت عطشًا . كل ذلك من المسائل التي لها الشأن الاعظم في دوائر السياسة العليا

والسودان لازم لمصر لزومًا لا انفكاك عنهُ . والسبب الذي حمل محمد علي باشا على فتحهِ

هو ان النيل حياة مصر فيجب ان يمنع كل ما يخشى منهُ عليهِ ولذلك فالذين يهدم زمام مصر يخشون من كل امة تقصد استيطان السودان لئلاَّ تدفعها مصالحها إلَى استخدام مائهِ وحرمان بلاد مصر منها

ثم ان البلاد المعروفة ببحر الغزال هي افضل بقعة في بلاد السودان واكثر بقاعهِ خيرًا ومَيْرًا فالارض خصيبة يزرع فيها القطن والصمغ المندي وفيها كثير من المواشي والسكان اهل نجدة وقدرة على الحرب يبلغون خمسة ملايين او ستة وهم منقسمون إلَى قبائل شتى ولذلك يسهل الاستيلاء عليهم فاذا استولت عليهم دولة اجنبيَّة لا تهتمُّ بمصلحة مصر لم يعُد لمصر طاقة عَلَى امتلاك السودان ولو استرجعتهُ

هٰذَا وان قيامي في عاصمة الدراويش بضعة عشر شهرًا وما تخللها من الاخبار عن احوالهم كانها يخولانني ان اقول للحكومة المصريَّة التي سعيت في مصلحتها زمانًا طويلاً واتوق إلَى استرجاعها بلادها بكل جوارحي ان تقلُّبات الزمان لا تنتظر مطالب الانسان فان عيون كثيرين طامعة إلَى تلك البلاد واذا استولوا عليها فاخراجهم منها اصعب من اخراج الخليفة وفي طاقة مهندسيهم ان يحوّلوا ماء النيل إلَى مجاري أُخرى فيحرم القطر المصري من علة حياتهِ فضلاً عن انهم يستولون عَلَى موارد تجارة السودان التي يمكن ان تعود الى القطر المصري لو عاد اليها واُحسنت سياستهُ

وختم سلاتين كتابهُ بنادرة من اغرب النوادر وهي انهُ لما مضى الى مدينة لندن في الصيف الماضي وحضر اجتماع الجمعيَّة الجغرافيَّة اهدى اليهِ المستر كوك سيفًا عربيًّا فنظر اليهِ واذا هو سيفهُ وكان قد سلمهُ للمهدي حينما سلَّم اليهِ في اواخر سنة ١٨٨٣. والظاهر ان المهدي اهداهُ الى احد اتباعهِ الذين جاءوا مع ولد النجومي فلما غُلب ولد النجومي في واقعة طشكي قُتل حاملهُ وغنمهُ احد الاهالي فاشتراهُ المستر كوك منهُ في لقصر وعُرف انهُ سيف سلاتين لان اسمهُ عليهِ

هذا ما تمَّ لنا تلخيصهُ من كتاب سلاتين باشا. والكتاب كبير فيهِ ٦٣٠ صفحة بقطع المقتطف وقد تخيَّرنا في تلخيصهِ ما تلذُّ مطالعتهُ وتبقى فائدتهُ ولاسيما ما يتعلق بتاريخ السودان من حين قيام المهدوية إلَى الآن واجتهدنا في تعريب ما اصلهُ عربي بما يطابق العربيَّة. ولا نذكر انهُ ظهر كتاب خدمتهُ الايام كما خدمت هذا الكتاب فانهُ لم يكد ينتشر بين القراء حتى سارت الحملة على السودان فزادت الرغبة في مطالعتهِ وتحقيق ما فيهِ وثبت ان كاتبهُ صادق الرواية فيصح الاعتماد على كل ما اوردهُ فيهِ